المنهارة، إن لم تكن تسعف الانهيار وتصفق له طَروباً. ومن حقّ أدونيس، بالتأكيد، كغيره من المثقفين العرب أن يجتهد كما يرى، ومن حق غيره أن يقبل باجتهاده أو يزورَّ عنه، شريطة أن يبقي للعقل مكاناً، وأن يتبقّى قسطٌ من المسؤولية والمحاكمة الصحيحة، لأن أسئلة التطبيع المتعددة لا تتطابق مع أسئلة مدرسية عادية تقبل بالمقارنة البنيوية أو ترفضها مثلاً. فالاقتراب من سؤال التطبيع يفترض الاعتراف الصريح بهزيمة قومية، ويفترض، في اللحظة عينها، معالجةَ السؤال، من وجهة نظر مجابهة الهزيمة. وما حصل يخلط بين اختلاف المناهج القديمة واختلاف الحدود الجغرافية، كما لو كان التاريخ سلعةً تسلّع بين أساليب أدبية أخرى.

ومن المفارقة بمكان أن أدونيس لا يحتاج إلى قضية تحمل اسمه، مادامت قضيته فيه ولا تنفتح على خارجها: فهو الشاعر ـ الرائي الذي يضيق بمن لا يرى، سلطةً كانتْ أم مكاناً جغرافياً أم قارئاً؛ وهو المنفيُّ الأبدي الذي لا يرتاح إلا في ملكوت الإبداع ـ الأصل؛ وهوالمغتربُ السرمديُّ الذي لا يألف إلا ذاته؛ وهو المبدعُ ـ الجوهر، الذي ينبثق من ذاته ولا يعترف بالأزمنة. ومن كان قائماً في ذاته ولا يحتاج إلى ما هو خارجها، لا يكترث بمن يحمل عنه أعباءه، لأنه هو الداخل والخارج في آن، وهو العبءُ ـ الأصل الذي تتطامن أمامه كلُّ الأعباء الأخرى. وهذا ما يميّزه عن «أطفال العراق»، الذين يحتاجون إلى من يحمل عنهم أعباءهم أو يخفّفها. هنا تبدو المفارقةُ جارحة، إذ تذهب طقوس القضية إلى من لا يحتاجها، وتُمنعُ صفةُ القضية عن الطفل الفقير المصلوب في العراء. وبسبب هذا تستبين دلالةُ عدد مجلة **الآداب** عن نصرة العراق، تلك المجلة التي رفعتْ صوتَ من لا صوت لهم، ووقفتْ إلى جانب من يبحث عن قبضة دفء لا عن نجومية باذخة. لقد كانت **الآداب**، في صوتها المسؤول، تتابع، بشك مهموس، القضايا الوطنية الكبرى، التي رفعها، يوماً، طه حسين ورئيف خوري والحدسُ الناصريُّ الجميلُ المثقل بالأحلام والأوهام معاً.

يسخر هنريش هاينه من زمانه ويتندّرُ على البشر الذين يعكسون زمانهم فيكتب: «على صفحة هذا الرأس، الذي يفترض أن يكون وجهاً، طبعت آلهةُ الابتذال طابعَها، وفي شكل عنيف، حتى كأنَّ الأنف الذي فيه مسحوقٌ تقريباً، والعينان الخفيفتان تبدوان مرهقتين في البحث عن هذا الأنف»[1]. أما آلهة الابتذال، في زمننا العربي، فقد خلفتْ كتلةً مبهمةً، لا وجهَ فيها ولا ملامح، وإن كان لها صوت راعدٌ، عقيمُ الكلمات.

دمشق

(١) هاينريش هاينه: **رايسبيلدر. رحلات هاينه في أوروبا**. (دار التنوير، بيروت، المجلد الثاني، ص: ٩)

حكايات قصيرة جداً

ثائر زكي الزعزوع

١ ــ تابوت

حين كنت صغيراً، كنت أركض خلف الجنازات، وأراقب التوابيت بدهشة. وبعد أن كبرت قليلاً، قال أبي: «كلّ الناس حين يموتون، يُحملون هكذا». فصرت أخاف النظر إلى التابوت حين يمرّ.

وذات مرّة ـ وقد صرتُ رجلاً ـ جاءني في الحلم تابوتٌ يضحك.

٢ ــ شموع الخضر

كانت النساء تطوّف الشموع على وجه الفرات، والدموع تنهمر من عيونهن... إلاّ جارتنا، الداية أم فراس، فقد كانت منشرحة الصدر مبتسمة. وحين سألت أمّي عن السبب، قالت: بعد تسعة أشهر من هذه الليلة، ستنجب كُلّ هؤلاء النسوة.

٣ ــ قرار

قال الرجل لزوجته: الراتب لا يكفي يا امرأة، الأطفال يكبرون ويكثرون، والله لا أعرف ماذا أفعل. ثمّ أضاف: «قررت أنْ نتوقف عن الإنجاب». وعصر نهديها بقبضتيه، حتّى اختفى صوتاهما، ولم يبق غير اللهاث المحموم.

٤ ــ الفائز

حملوني فوق أكتافهم، وردّدوا عباراتٍ لم أسمعها قبلاً، ثم ساروا. كانوا كثيرين جدّاً، أناس أحبهم وآخرون أكرههم. ساروا، وأنا في الأعلى، يتناوبون على حملي، ويردّدون تلك العبارات، حتى وصلنا إلى مكان غريب. وضعوني في حفرة، وغطوني بالتراب، ثمّ انصرفوا.

٥ ــ الرجل العصريّ

عاد يوسف الخليل من أوروبا، بعد ستّ سنوات من الدراسة والعلم. وبعد أشهر، مرض. وحينما أجريت الفحوص تبيّن أنّه مصاب بالإيدز.

٦ ــ العرّاب

حين قُتل عمي، أصدر جدّي الأوامر بأن نستعد للثأر من قاتليه. فتسلح أفراد عائلتنا، وصارت بيوتنا مثل القلاع. بعد سنوات مات جدّي، ومات قاتل عمي، ومازلنا نحمل المسدسات، ونتلصص في الليل مثل القطط.

٧ ــ الرؤية الأخيرة

وقفنا مذهولين، أغلبنا يرى وجه الميت لأول مرّة. هكذا إذن يبدو الموت: كان أحمد ممدداً على سريره بلا حراك، جسده هامد، وجهه أصفر، وعيناه جاحظتان. لكنه كان يرسم على شفتيه ابتسامة لذيذة. قال بهاء: الموتى يبتسمون، ونحن نبكي.

دمشق